الحدود الفنية لتجربة الشاعرة المعاصرة ، من حيث هي تجربة تقف على طرف موروث شعري عربي ضخم ، فأمر ذلك متروك لدراسة موسعة . ولكن هذه الدراسة تطمع ، فحسب ، بتتبع طرف هام من أطراف ذلك الهاجس الرومانسي ، وهو الطرف الذي يؤكد على « الحلم » ، وما يتصل به ، من الهجرة المتصلة عن ارض الواقع ، ومن انكسار للحضور الحسي للاشياء ، الذي يشكل مصدرا اساسيا لكل حاسة صحية . بحيث يستحيل ذلك الحلم ، لا الى مواجهة لليقظة او للوجود بكل تناقضاته ، بل يستحيل الى بوابة سهلة غائمة للهرب . كما يؤكد على « ضمير الغائب » الذي يملأ فراغا رومانسيا كبيرا في شعر فدوى طوقان ، هذا الغائب يأخذ اشكالا عديدة ، يكون احيانا « الفارس » واحيانا « الحبيب » ، واخرى يظل « ضميرا غائبا » عليه مسحة من الغموض لا دلالة فيها ، فقط باعتباره مصدرا للتطلع وراء الافق .

ان هذا « الغائب » الذي كانت الشاعرة فدوى طوقان ، تختلقه اختلاقا طيلة السنوات السابقة ، وعلى مدى المجموعات الاربع الاولى ، هو ذاته الذي يصبح بعد حزيران « الفارس العربي » او « الفدائي العربي » ، والذي اهدته مجموعتها الاخيرة « الليل والفرسان » .

(٢)

قبل ان ابدأ في تتبع فدوى طوقان شعريا ، احب ان القي نظرة عاجلة على « صفحات من مفكرتها »(٢)، التي نشرتها للمرة الاولى كيوميات في مجلة « الجديد » التي يصدرها في العربية الحزب الشيوعي في اسرائيل ، والتي كان يرئس تحريرها الشاعر محمود درويش . عل هذه اليوميات ان تلقي ضوءا يسيرا على تجربة فدوى الشعرية ، وعلى مواقفها الداخلية ، فيوميات المفكرة تظل ، رغم تجربتها العابرة ، ذات صبغة تقريرية عاجلة ومباشرة ، تستطيع ان تقدم خلفية واضحة لمسيرتها الشعرية .

تقول في اليومية الاولى ، في معرض حديثها عن القاصة الراحلة سميرة عزام « بأنها ذكية وعميقة ، غير ان فيها شيئا من الانضباط اللاانثوي ... انها تحلل كل شيء في عقلها ولا تترك الامور للاعماق . تدفن الاعماق ، تغلفها دون النشوة الحقيقية والحزن » . والحزن في عرف فدوى ليس نتيجة لمواجهة عقلية ، بمعنى انه ليس موقفا من الوجود عرفته الفلسفة بمنطقها التحليلي . ولكنه « النشوة الحقيقية » أو مرادفها ، ذلك الحزن العفوي الذي يتوالد من منطق نفسي بحت ، والذي تقف وراءه مجموعة من العوامل الاجتماعية : العلاقات الانسانية ، العائلة ، الطفولة ، القيم .. الخ . وهو حزن دافىء دون شك ، لانه لا يرتبط بالتأمل ، ولكنه يرتبط « بالحلم » ، ولانه لا ينبع من وعي مراقبة الواقع ، والاحساس بكل تعقيداته ، بقدر ما ينبع كنتيجة عفوية نفسية لذلك الواقع باعتباره قدرا. تقول الشاعرة في يومية اخرى متحدثة عن أيام صباها ، وكاشفة بوضوح عن هوية ذلك الحزن : « امضيت النهار كله مع ــ الصديق الغريب ــ في القدس . قاد السيارة في دروب لم اعرفها من قبل . تحدثنا كثيرا ، وصمتنا كثيرا ... سألني عن حياتي وأيام صباي الاولى ، فحكيت له عن الكبت الرهيب الذي عشت فيه ، وكيف كانت انوثتي تئن كالحيوان الجريح في قفصه ، ولم يكن لها متنفس مهما كان لونه . كل شيء محظور في البيت ، الضحك ، الغناء ، العزف على العود ، وكان هواية محببة لي تعلمتها سرا . كنت احلم دائما بفتى احبه . ولم تكن صحبة الفتيات تسليني او تجتذبني قط ، ضحك ــ الصديق الغريب ــ حين حدثته ، كيف كان والدي رحمه الله ، يحثني وانا في هذه الحال من الضغط والكبت والضيق ، كيف كان يحثني على كتابة الشعر السياسي والوطني كما كان يفعل شقيقي الراحل ابراهيم ، فكلما برزت مناسبة سياسية او وطنية طلب مني

---

٢ ــ مجلة **الطريق** ، العدد الثاني ، شباط ١٩٧٠ ، السنة التاسعة والعشرون .